

مادة مفاهيم ونصوص فلسفية

S1

ذ.محمد مزيان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية (جامعة ابن طفيل/القيطرة)

مسلك الفلسفة و ع.ج

الموسم الجامعي: 2020-2021

الحصّة الثانية

تتقرر الطبيعة الفطرية لحقيقة الكائنات منذ اللحظة التي يقر فيها "لايبنتز" القول التالي: "إن حقائق الميتافيزيقا والهندسة الأزليتين، وتبعاً لذلك، قواعد الخير والعدل والكمال أيضاً، ليست سوى نتائج لإرادة الله... هذه الحقائق ليست غير توابع لمملكة الفهم عند الله" (14). فحقائق الأشياء معطاة بمعزل عن الأشياء، إنها عطاء ميتافيزيقي حيث يكون ماهو فيزيائي لاحقاً ثانوياً وليس من ماهية الكائن في شيء. من هنا أهمية العقلي بالنظر إلى الحسي، بل من هنا أهمية المفاضلة بين الجسد والعقل.

تسري هذه المفاضلة على مجمل الكائنات باعتبار المفاضلة آلية لتبين حقيقة الكائن. هكذا تبدأ أجرة التذويت عند "لايبنتز" انطلاقاً من اختزال الحسي في الروحي ضمن كل كائن، إلا أن الأمر لا يتوقف عند ذلك بل يتجاوز إلى مفاضلة أخرى تميز بين مستويات الكائنات حيث يمكن إقامة تراتب بين كائنات مؤهلة بالرغبة والإدراك وتشمل النباتات، ثم الكائنات المؤهلة - بالإضافة إلى الرغبة والإدراك - بالذاكرة وينطبق ذلك على الحيوانات، وأخيراً الكائنات المؤهلة بالعقل والتي لها القدرة على بلوغ حقيقتها الخاصة كما الحقائق الخالدة، وهذه الكائنات هي ما يصطلح عليه "لايبنتز" بالموناد العاقل. إلا أن ما يهمننا هنا هو طبيعة العلاقة بين هذه المونادات.

إن هذه المونادات لاعلاقة فيما بينها خاصة وأن الموناد العاقل هو بالتعريف داخلية مطلقة. وإذا كان الإدراك يشكل قدرة الموناد على تفسير عموم الكائنات فإن هذه القدرة هي محددة سلفاً باعتبارها معطى فطرياً. فدرجة كل موناد على فهم بقية المونادات محددة ببرنامج إدراكي فطري لا يمكنه أن يتخطى حدوده، من هنا تكون رغبة كل موناد بما هي رغبة إدراكية تكون محدودة بحدود القدرة الإدراكية الطبيعية للكائن. إن الكائن إذن، هو هنا معطى سلفاً كشفرة طبيعية ثابتة وقارة. ولا يفيد هذا إلا بأن المونادات على اختلاف طبقاتها، وإن أقر "لايبنتز" بترابطها على نحو منسجم، إلا أن ترابطها ذاك يظل ترابطاً خارجياً لا يؤثر في الطابع الجوهرى الداخلى للموناد.

هكذا تكون حقيقة الأنا بمثابة موناد عاقل مكتف بذاته بما هو عاكس لعموم الكائن دون أن يكون لذلك أدنى تأثير على جوهريته، فالأنا تصير ذاتاً من حيث أنه في مقدرتها الإدراكية تفسير جملة الكون دون أن يكون العكس صحيحاً؛ ومرجع ذلك أنها جوهر مغلق كما بقية المونادات، وهذا ما يفسر قول "لايبنتز": "يترتب على ما تقدم أن التحولات الطبيعية للمونادات تأتي من مبدأ داخلي" (15). بهذا تكون سيرورة تذييت الأنا هي سيرورة تأكيد داخليتها المغلقة، إثبات جوهريتها المكتفية بذاتها.

الحقيقة أن سيرورة تذويت الأنا(أي تحويل الأنا إلى ذات متسيّدة على الكون)هي سيرورة تأكيد الأنا باعتبارها ذاتا،مع ما يعنيه هذا من تأكيد لها بوصفها علة كافية تصيّر عموم الكون إلى مجرد موضوع وذلك ضمن التمثل. وحده هذا التصيير كفيلا بتعليل وجود الكائن باعتباره ما يوجد من أجل الذات،إنه الموضوع الذي ليس كذلك إلا من حيث إنه تحت قبضة التمثل الذاتي. والجدير بنا القول إن هذه الأطروحة التي تعود إلى "هايدجر" هو ما جعله يولي أهمية قصوى لمفهوم العلة الكافية عند "لايبنتز". فمبدأ العلة ليس فقط تحويلا نظريا للكائن إلى موضوع ضمن التمثل،بل إن هذا التحويل لا يخلو من تبعات عملية لاسيما وأن ratio التي تشكل الجذر اللغوي لكلمة raison الفرنسية و raizon الألمانية تعني توفير علة للكائن ضمن تصور تمثلي يحول الطبيعة إلى شبكة علاقات عليّة حتمية؛كما تعني في نفس الوقت جعل الشيء قابلا للحساب،للمعالجة الرياضية التي أصبحت اليوم معالجة تقنية حيث يخضع الكائن لماهية التقنية باعتباره استفسارا وإخضاعا للكائن بمعزل عن كينونته ككائن.

إن ما انتهى إليه "ديكارت" و"لايبنتز" من تأسيس دوغمائي للذات عبر خطاب فلسفي محترف هو ما عبّر عنه الفيلسوف-الفقيه "مالبرانش" بطريقة متواضعة فلسفيا. فقد عرض بطريقة بسيطة لسيرورة تأسيس الذاتية وذلك من خلال خليط فلسفي لاهوتي يكشف عن الأصول البعيدة للتصور الدوغمائي للذات. فلم يتوان "مالبرانش" عن عرض الأصول المسيحية للذاتية (فلسفة تمجيد الذات استنادا إلى ملكاتها العقلية)،ذلك أن الإنسان له طبيعة مزدوجة: ف"من حيث إننا جسم وفكر فإن لدينا نوعان من الخيرات لنا أن نبحث عنها،خيرات الفكر وخيرات الجسد"(16). غاية النفس هي المعرفة ذلك أنه "إذا كان من المؤكد أن ملكة التفكير التي لدينا جاءتنا من الله فمن المؤكد أنها وضعت من أجل الله"(17)؛هذا في حين أن الجسد يحول باستمرار دون معرفتنا بالله. لذلك ف"إذا كان الله قد منحنا جسما كما منح ذلك أيضا للمسيح فمن أجل أن نفعل به كما للمسيح،أي أن نضحى به كهبة لله"(18). النتيجة أن الأنا أفكر ليست جسدا بل إنها طبيعة عقلية منغلقة عما عداها من طبائع أخرى فهي عطاء إلهي تام،إنها قبس روعي من الله. لذلك فهي في نظرية الخلق أسمى من أي مخلوق،فقد خلق الله الجسد من أجل النفس مثلما خلق بقية المخلوقات من أجل "الأنا أفكر". ف"الأنا أفكر" هي هنا ذات بما هي أسمى المخلوقات،لذلك ليس غريبا في شيء انتهاء الرجل إلى الخلاصة التالية: "إذن فهذه الأنا التي تفكر أي جوهرية الخالص هي ليست جسما أبدا"(19).

ظل التأسيس الفلسفي للمفهوم الدوغمائي للذات (الدوغمائي أي المتطرف لجهة مبدأ ماء،والمقصود هنا التطرف لموقف الطابع العاقل للذات مثلما نجد ذلك عند ديكارت) إذن حبيسا لنظرية الخلق وهذا ينطبق أيضا على "ديكارت" و"لايبنتز". لذلك لاحظ "ألبي" أنه "بالرغم من أن المسيحية قد حطّت من قيمة الطبيعة معتبرة

إياها ساقطة أمارة بالسوء، فقد أفقدت العالم تماسكة وأدركت الكينونة كإرادة وأكدت على القيمة الوحيدة للذات الإنسانية" (20).

إضافة إلى المنزع الرياضي المنطقي الذي اعتمده "ديكارت" و"لايبنتز" كل بطريقته الخاصة كما سنتابع ذلك، لم تخل أطروحاتهم من منزع لاهوتي. لذلك ذهب "هايدجر" إلى قول إن "الميتافيزيقا الحديثة منذ "ديكارت" إلى "كنط" وبعده أي ميتافيزيقا المثالية الألمانية (يمثلها الفلاسفة: فيشته، شيلينغ، هيغل) لا يمكن التفكير فيها خارج التمثلات المسيحية الأساس... فبالنسبة لبنية هذه الميتافيزيقا هناك لحظتان أساسيتان: (1)- التمثل المسيحي للكائن من حيث إنه كائن مخلوق (2)- السمة الرياضية الأساس. تتعلق اللحظة الأولى بموضوع الميتافيزيقا في حين تتعلق الثانية بصورتها" (21). لعل ما ينتهي إليه هذا المشترك هو تأكيد الذات كإرادة على حد تعبير "لايبنتز" أو كإرادة على حد تعبير "ديكارت"، وهما معا مسميات لنفس الآلية التي ترتقي بالآنا إلى مستوى الذات، أو كما ذهب "ألكي": "بإعلان ديكارت أن الفكر هو الذات نفسها يكون قد اختزلها إلى مبدأ شخصي لا يمكنه أن يكون غير الإرادة" (22) حيث "يبدا مبدأ الإرادة كعلة كافية لتأسيس الآنا" (23).

تستحيل الآنا إلى ذات بقدر ما يتم تحديدها بوصفها إرادة لكونها جوهرًا، اكتفاء ذاتيًا، "مونادا" عند "لايبنتز" أو "أنا مفكرة" عند "ديكارت"، وأخيرا باعتبارها مخلوقا على صورة الله عند "مالبرانش". وفي كل الأحوال نحن أمام مشهد مولد ذات-إرادة نفي وإقصاء ما عداها كي يمثل أخيرا بوصفه موضوعا، فموضوعية الموضوع لا تستقيم إلا باعتبارها معلولا لذات-سيد يعبث بطباع الأشياء ومصائرهما. لعل ذلك مانستشفه من توصيف "ألكي" لأطروحات "ديكارت" قائلا: "تنزع النظرية الديكارتية كل موضوعية أنطولوجية (أي وجودية، والمعنى هنا أن الطبيعة تستمد حقيقتها من العقل الإنساني وليس من ذاتها) عن الطبيعة، كما تنزع عن علم الطبيعة كل أهمية ميتافيزيقية" (24). وبهذا يكون "ألكي" قد حدد الملح الأساس للعقلانية الدوغمائية بما هي تخط للمعطى نحو تأسيسه العقلي لتستحيل بذلك الطبيعة إلى فكرة، إلى معادلة رياضية. وبهذا نلاحظ تزامن تأسيس الذات مع إخضاع الطبيعة لمقتضيات العقل.

### لائحة المراجع

(14)- لايبنتز (غوتفريد فيلهلم)، مقالة في الميتافيزيقا، ص 91، ت. الطاهر بن قيزة، المنظمة العربية للترجمة، 2006.

15)- Leibniz (Gottfried wilhelm), La monadologie, p128, Librairie Générale Française, 1990.

16)- Malebranche (Nicolas), conversations chrétiennes, p36, Gallimard, 1979.

17)- ibid, p63.

- 18)-ibid,p170.
- 19)- ibid,p224.
- 20)- Alquié(Ferdinand),la découverte métaphysique de l'homme... t  
2,p427,ceres,1995.
- 21)- HeideGGer(Martin), Qu'est-ce qu'une chose,119-120, Gallimard,1971.
- 22)- Alquié(Ferdinand),la découverte metaphysique de l'homme... t  
2,p252,ceres,1995.
- 23)- ibid,p258.
- 24)- ibid,p162.